فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون (*)

منذ كنا طلابا فى المرحلة الابتدائية بالأزهر الشريف ، ونحن مشغولون بقضية المسلمين الأولى ، قضية أرض النبوات والمقدسات ، أرض فلسطين .

وكان مما أكد اهتمامى بهذه القضية : أنى انتسبت مبكرًا إلى مدرسة رجل كانت هذه القضية من أكبر شواغله ، وفى مقدمة اهتماماته ، تلك هى مدرسة حسن البنا الذى كان من الرواد الذين نوروا العقول ، وألهبوا العواطف ، من أجل فلسطين والمسجد الأقصى .

كنا نسير المظاهرات الصاخبة ، ونلقى الخطب النارية ، وننشئ القصائد الحماسية ، لإلهاب المشاعر ، وتحريك الشعوب ، وتجنيد القوى والطاقات من أجل فلسطين ، وخصوصا فى الثانى من نوفمبر كل عام : ذكرى وعد (بلفور) الذى قيل فيه : من لا يملك وعد من لا يستحق !!

وقد علق على هذا الوعد الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين بقوله : إن فلسطين ليست وطنا بغير شعب حتى تستقبل شعبًا بغير وطن !!

(*) نشرت هذه الكلمة فى الصحف القطرية بعد توقيع (اتفاق أوسلو) المشؤوم.

وحينما فتح باب التطوع سنة ١٩٤٨م ، بادرنا إلى التدريب من جهة ، وإلى تعبئة مشاعر الجماهير من جهة أخرى ، وذهب من إخواننا وزملائنا إلى أرض المعركة من ذهب ، واستشهد من ادخر الله له الشهادة ، وسيق إلى المعتقل من كتب الله له الحياة ، وشهدنا اندحار الجيوش العربية السبعة أمام عصابات اليهود ، بخيانات الخائنين ، وتآمر المتآمرين .

إسرائيل المزعومة ! :

وهكذا قدر لجيلنا أن يشهد سلسلة دامية الحلقات من المآسى ، فى قضية فلسطين .

شهدنا قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ، الذى رفضناه بالإجماع ، لأن أحدًا لا يقبل تقسيم داره بينه وبين غاصب ظالم . ثم تمنينا لو قبلنا ما رفضناه بعد أن جرى ما جرى .

ثم شهدنا قيام دولة (إسرائيل) فى١٩٤٨/٥/١٥، وإخراج مئات الألوف من أبناء فلسطين من ديارهم ، وتشريدهم فى الأرض .

شهدنا قيام دولة (إسرائيل) التى ظللنا سنوات عدة نطلق عليها اسم (إسرائيل المزعومة) ثم خجلنا من أنفسنا ، حين كانت هذه المزعومة تصول وتجول على كل الجبهات ، ولا نملك نحن إلا الشجب والشكوى إلى مجلس الأمن ! فحذفنا وصف (المزعومة) بعد أن أوشكنا أن نكون نحن (المزعومين)!!.

شهدنا النكبتين الكبيرتين : النكبة الأولى سنة ١٩٤٨ ، والنكبة الثانية ١٩٦٧، التى احتلت بها إسرائيل ما بقى من فلسطين : الضفة الغربية بما فيها القدس ، وغزة ، إضافة إلى سيناء والجولان وجنوب لبنان .

فصل جديد فى المأساة :

ولكن قضاء الله لهذه الأمة ، أنها لاتموت ، وأنها أمة ولود لا تزال تنجب الأبطال ، الذين لا يدعون الراية تسقط أبدا ، فقامت حركات النضال والجهاد لتحرير الأرض المقدسة ، التى بارك الله فيها للعالمين ، ابتداء من (فتح) إلى حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وقامت (الانتفاضة) التى بهرت العالم ، وزلزلت إسرائيل ، وما ذلك إلا لأنها انتفاضة إسلامية ، كانت منطلقاتها المساجد ، ورياتها المصاحف ، وشعاراتها : لا إله إلا الله ، والله أكبر ؛ ونشيد أشبالها : خيبر ، خيبر ، يا يهود ، جيش محمد سوف يعود!!.

ولكن ها نحن اليوم نشهد فصلا جديدًا ، لم يكن ليخطر لنا على بال ، قلب كل الموازين ، ونقض كل القواعد ، وغير كل الثوابت التى أصبحنا وأمسينا عليها نصف قرن من الزمان ، ونشَّأنا على ذلك أطفالنا ، وربينا عليه شبابنا ، فشب عليه الصغير ، وهرم عليه الكبير : أن إسرائيل خطر عسكرى وسياسى ودينى واقتصادى وثقافى ، وصنفت فى ذلك مؤلفات ، وأنشئت لذلك مراكز ومؤسسات ، وعقد له ندوات ومؤتمرات .

وكم بدأنا وأعدنا فى حقنا فى الأرض كل الأرض ، وأن العدوان لا يكسب المعتدى شرعية ، وما قام على الباطل فهو باطل . إلخ . ثم تخاذل المتخاذلون ، فإذا هم يرضون بالواقع بعد عدوان ١٩٦٧/٦/٥م وإذا هم يبنون سياستهم على مجرد إزالة آثار العدوان ، والرضا بالعودة إلى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧م أى أن العدوان الجديد كأنما أضفى الشرعية على العدوان القديم! عدوان (١٩٦٧ م) أنسى عدوان (١٩٤٨م) .

ثم زاد الطين بلة ـ كما يقولون ـ فرضى من رضى بمجرد حكم ذاتى تحت سلطان إسرائيل !!.

ثم انتهى المطاف إلى ما شهدناه اليوم من قبول الدون ، والقرار الهون : من تجزئة الحل ، وإسقاط القدس ، والتنازل عن جزء من دار الإسلام لغاصبيه ، والسكوت عن حق الملايين الثلاثة أو الأربعة فى العودة إلى ديارهم المغصوبة ، ومد يد المصافحة إلى أبطال دير ياسين وصبرا وشاتيلا وغيرها . كل هذا فى مقابل ٢٪ من مجموع أرض فلسطين ، على نحو ما قال العربى قديما : إذا ما لم تكن إبل فمعزى !!.

أنا أعلم أن الشعوب قد تأتى عليها ساعات توقع فيها على هدنة أو صلح وهى كارهة مرغمة ، بعد اندحارها فى حرب لا تملك بعدها إلا التسليم . كما فعلت اليابان بعد ضربها بالقنابل الذرية ، وكما فعلت ألمانيا بعد هزيمة هتلر .

ولكن أن يستسلم الفارس ، وهو شاهر سيفه ، حامل رمحه ، ممتط جواده ، وأن يعتبر استسلامه لعدوه مجدًا وفتحا يحسب له ، ويغبط عليه ، ويعد تنازله عن جزء من وطنه مكسبًا ، ويطالب الحناجر أن تهتف باسمه ، والأيدى أن تصفق له . فهذا ما لم نعهده فى تاريخ الأبطال والفرسان إلا حين يستحيل الفارس إلى دمية ، والفرس إلى حمار ، والسيف إلى عكاز! .

إشفاق على أبنائنا :

إننى أشفق على أبنائنا وشبابنا الذين حفظناهم أناشيد الجهاد ، وأغانى العودة وعلقنا قلوبهم وعيونهم بالمسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، ومسرى الرسول ، وأولى القبلتين ، وصببنا فى عقولهم وضمائرهم ووجدانهم كراهية بنى صهيون وظلم إسرائيل التى قامت على اغتصاب الأرض ، وانتهاك العرض ، وتشريد الأهل . فإذا بنا ـ ما بين عشية وضحاها ـ نشطب هذا كله ، وننسخه بجرة قلم ، ليصبح العدو صديقا ، والاغتصاب مشروعا ، والعدوان مقبولا ، مع أن الوطن لم يتحرر ، والمشرد لم يعد إلى أرضه ؛ والأقصى لم يزل أسيرا ، فكأننا نقول لهذا الجيل المسكين : لا تصدقونا فيما كنا نقول لكم ، إن الذى كنا نسميه بالأمس جهادًا وبطولة ونضالاً أصبح اليوم عنفًا وإرهابًا ، والذى كنا نسميه سفاحًا غدا اليوم شريفًا . لا يوجد شىء ثابت عندنا ، كل ما كان حقًا يمكن أن يكون باطلاً ، افتحوا النوافذ لتهب عليكم نسمات

إسرائيل ، وافتحوا الأبواب لتدخل عليكم بضائع إسرائيل ، وبنات إسرائيل أيضًا ، و « إيدز » إسرائيل !!.

حفل التوقيع البائس :

لقد أكد رابين عشية سفره إلى واشنطن للتوقيع على الاتفاق المزعوم للسلام أن القدس ستظل عاصمة لإسرائيل ، وللشعب اليهودى إلى الأبد ، وأن العلم الفلسطينى لن يخفق فوقها يومًا من الأيام !! وهو بهذا يبلغ رسالة إلى الفلسطينيين يؤكد فيها أحد الثوابت التى لا تقبل التغيير ، أو التعديل فى السياسة الإسرائيلية ، فعلى الفلسطينيين أن ينسوا قضية القدس ، ويشطبوها من خريطتهم . . وأكد ذلك فى حفل التوقيع حين قال أمام العالم : نحن قادمون من القدس ، العاصمة التاريخية والأبدية للشعب اليهودى !!.

ولقد ذكر أبو عمار ، وأبو مازن في كلمتيهما : أنهما يأملان أن تحل المشكلات الصعبة المعلقة فى المرحلة القادمة ، وهى : مشكلات القدس واللاجئين والمستوطنات والحدود ، فإذا كانت هذه هى المشكلات المعلقة ، فما المشكلات التى تم حلها إذن ؟!.

الفرق بين رَجُلين وكلمتين :

والحق أنى كنت أتابع حفل التوقيع الذى يرونه عرسًا ، ولا أرى فيه إلا مأتما !.

كنت أقارن بين الموقفين وبين الكلمتين : موقف عرفات ورابين ، وكلمتيهما ، فأجد ـ وأأسفاه ـ فرقا شاسعًا .

كان موقف رابين موقف المتفضل المتنازل ، وموقف عرفات موقف الممتن الشاكر ! حتى إنه ختم كلمته بتكرار كلمة : شكراً (بالإنجليزية) ثلاث مرات ! .

لم ينس رابين أن يتحدث عن تاريخهم القديم والحديث ، وكفاحهم الطويل ، وشهدائهم وضحاياهم ، تمهيداً لحديثه عن السلام ، واستشهد بالتوراة ، وذكر فقرات من (سفر الجامعة) ، ودعا إلى الصلاة من أجل السلام ، ولم يكن هم عرفات إلا المديح والشكر والعرفان ، فلم يلتفت إلى شيء من قبيل ما ذكره رابين ، ولم يستشهد بآية من القرآن ، ولم يجر علي لسانه كلمة واحدة عن الإسلام! ولم يذكر المسجد الأقصى بعبارة واحدة !!.

انتهز رابين الفرصة ، وعلم أن العالم كله يشاهده ويستمع إلى كلمته ، فضمنها ما يدعم قضيته ، ويحشد عواطف العالم معه ، فتحدث ـ وهو القاتل ـ بلهجة الضحية ، وبدا ـ وهو الظالم ـ فى صورة المظلوم [1] !.

---

(١) ذكر الكاتب الكبير الأستاذ : محمد حسنين هيكل فى كتابه القيم (سلام الأوهام) ـ وهو الجزء الثالث من كتابه : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ـ ما قال بعضهم : إن الضحية شرحت مأساتها بأسلوب الموظفين الحكوميين، وأما الجلاد فقد تحدث عن نفسه بأسلوب الشهداء ! وقال آخر: إن هناك خطأ حدث . فخطاب رابين كان فى الأصل مكتوبا لعرفات . وخطاب عرفات كان لابد أن يكون خطاب رابين ! ثم قال ثالث : إن رابين تحدث عن المآسى الإنسانية التى عاشها الشعب الإسرائيلى . فى حين أن عرفات بدا وكأنه يعتذر نيابة عن الشعب الفلسطينى وعن نفسه ! (صـ٣٣٠).

كان رابين صارم التقاطيع ، متجهم الوجه ، وكان عرفات ضاحك الوجه ، صدقًا أو تظاهرًا ، ولا أدرى علام يضحك؟ إن كانت الظروف أرغمته على هذا الاتفاق الرخيص ـ فقد كان الواجب أن يبكى ، فإن لم يجد بكاء تباكى ! أو بدا على الأقل كما بدا خصمه .

لقد عرف تاريخ العمل الفلسطيني من قبل (أيلولا أسود) واليوم نراه يواجه (أيلولا آخر) أشد سوادًا !.

سلام السراب أو سراب السلام :

فى معرض الكتاب بالدوحة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٩٢م ، وفى أمسية شعرية ألقيت قصيدة عن (سلام السراب أو سراب السلام) عبرت بها نحو مشاعرى عن مسيرة السلام المزعومة ، قلت فيها :

فيا عجبا لمن يجري ... وراء سرابه النفسي
يظن له به ريًّا ... ويرجع فارغ الكأس
يفرط في دم الشهدا ... ء يا للعار والبؤس
يبيع الأرض والتاريـ ... ـخ بالأرخص من فلس
بحكم في حمى صهيو ... ن يا للثمن البخس
فلا دولته قامت ... ولا أبقى على النفس
وصاع جهاد قرن كا ... مل دفنوه في الرمس
جهود كلها ذهبت ... «كأن لم تغن بالأمس»

فمـــا معـــنى فلســـطين بلا أقصى ولا قـــدس؟
فلســـطين بـــلا قـــدس كجثمـــان بـــلا رأس

وكنا نحسب الحكم الذاتى فى حمى صهيون ـ الذى أنكرناه وعارضناه ـ يمهد لدولة فيما بقى من فلسطين ، فإذا الجمل يتمخض لا عن فأر ، بل عن صرصور يسمي (السلطة الفلسطينية). فأين حق الفلسطينيين فى إقامتهم دولتهم المستقلة على تراب وطنهم الحر ؟.

إنه الوهن :

إنه (الوهن النفسى) الذى حذر منه النبى ﷺ ، الأمة فى فترات (الغثائية) من تاريخها ، حين قال :« ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قيل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت». رواه أحمد وأبو داود .

وهو الذى حذر منه القرآن بقوله : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد:٣٥)، ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ (النساء:١٠٤) فالمتاعب مشتركة ، والمعاناة لنا ولهم . ولكن فرق بين من يعانى فى سبيل الله والحق والعدل ، ومن يعانى فى سبيل الطاغوت والباطل والظلم !

إننا لا نزايد على الفلسطينيين ، لسنا ملكيين أكثر من الملك كما يقال ، ولكن هناك حقائق يجب أن تعرف وتذكر وتؤكد ، وهى :

١- إن الفلسطينيين لم يؤخذ رأيهم فى هذا الأمر الجلل الذى غير ثوابتهم، ونقض تاريخهم، فلم تعقد لذلك مؤتمرات، ولا دعى المجلس الوطنى الفلسطينى (السلطة العليا للفلسطينيين).

٢- إن فصائل عديدة وكبيرة - إسلامية ووطنية - من الفلسطينيين رافضة لهذا الحل ، بل الانقلاب المفاجئ ، وتراه استسلامًا لا سلامًا ، وتنازلا عن حقوق ضخمة فى غير مقابل .

وشخصيات كبيرة رفضت التوقيع على هذا الهوان ، منهم أعضاء فى اللجنة التنفيذية ، مثل فاروق قدومى الذى قال : لا أوقع على شهادة وفاة قضية فلسطين! ، ومنهم أعضاء استقالوا مثل عبد الله الحورانى الذى قال بالحرف الواحد :

إنى أرى هذا الاتفاق تنازلا عن حقوقنا الوطنية والتاريخي ، وقرارات مجالسنا الوطنية : فى العودة وتقرير المصير ، وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ، وتثبيتا للاستيطان ، وتجاوزا لحقوق الإنسان الفلسطينى ، واتفاقية جنيف الرابعة ، وإسقاطًا لحقنا نحن الأربعة الملايين لاجئ فلسطيني فى العودة إلى وطننا ، وفق قرار الأمم المتحدة رقم (١٩٤) لعام (١٩٤٩ م) لأنه يتجاهل ذلك تماما . إلخ ما قال ، وما أبلغ وأصدق ما قال .

٣- إن فلسطين ـ ليست ملك الفلسطينيين وحدهم ، والقدس ليست قدسهم وحدهم ، والأقصى ليس أقصاهم وحدهم ، إنها ملك المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وليست ملك هذا الجيل وحده ، بل ملك الأجيال الإسلامية إلى أن تقوم الساعة . فإذا وهن الفلسطينيون أو طائفة منهم لما أصابهم من لأواء وضعفوا واستكانوا ، فواجب المسلمين فى كل مكان أن يهبوا لإنقاذ القدس ، فريضة من الله . والذى أنقذ الله على يديه القدس قديما ، لم يكن فلسطينيا ولا عربيًا ، بل كان بطلا إسلاميًا كردى الأصل ، عرّبه الإسلام .

٤- إن المعركة بيننا وبين بنى صهيون مستمرة ، نقاتلهم ويقاتلوننا ، حتى تأتى المعركة الفاصلة التى نبأنا بها من لا ينطق عن الهوى ، وهى التى يكون كل شىء فيها معنا ضد يهود ، حتى الشجر والحجر ، روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال :« تقاتلكم اليهود ، فتسلطون عليهم ، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر ، فيقول الحجر : يا عبدالله ، هذا يهودى ورائى فاقتله »!! .

وروى مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » .

٥- إن الربـاط مسـتمر ، والجهـاد مـاض ، فـى أرض النبـوات ، ومسـرى الرسـول الكـريم ، حتـى يـأذن الله وحـده بالنصـر ، وينجزه وعده .

روى الإمام أحمد في المسند ، والطبراني بسند رجاله ثقات عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزال طائفـة مـن أمتـى علـى الدين ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم مـن جـابههم ـ إلا ما أصابهم من لأواء (أى من أذى) حتى يـأتي أمـر الله وهـم علـى ذلك . قيل : يـا رسـول الله ، وأيـن هـم ؟ قـال : ببيـت المقـدس ، وأكناف بيت المقدس ».

لماذا سارعت إسرائيل إلى الاتفاق ؟ :

إن إسرائيل قد سارعت بإقامة هذا الاتفاق لتحقيق أمور ثلاثة تهمها :

الأول : ضـرب الصـحوة الإسـلامية فـى فلسـطين وفـى العـالم العربـى ، بـل فـى العـالم الإسـلامى ، وقـد كشـفوا عـن ذلـك فـى كلمـاتهم حـين تحـدثوا عـن قلقهـم مـن تنـامى خطـر الأصـولية الإسلامية [1]، وقد قال بيريز في زيارته للهند : إننا نضع أيدينا فـى أيديكم للوقوف فى وجه الأصـولية الإسـلامية المتشـددة ، أى فـى قضية كشمير وجامو .

---

(١) انظر : فصل (صيحة الخطـر الإسـلامى) مـن كتـاب هيكـل (سـلام الأوهـام) ص٢٢١ وما بعدها .

وقد نقلت وكالة رويتر بُعَيد الاتفاق : حديثا لمسؤول إسرائيلى قال فيه : إننا لو تباطأنا عن هذا الاتفاق فقد نفاجأ بعد ثلاث سنوات أو أربع بقوة إسلامية تملك صواريخ بعيدة المدى ، وربما تملك القنبلة النووية .

وإسرائيل تريد أن تكون هى القوة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى تملك الصواريخ ، وتحتفظ وحدها بترسانتها النووية .

الثانى : الاختراق الإسرائيلى للعالم العربى ، ثم العالم الإسلامى كله ، ليصبح سوقًا مفتوحة لبضائعها ، ومصنوعاتها ، ولغزو خبرائها ، وغزو نسائها أيضًا . فإسرائيل ـ كما قال بيريز ـ تبحث عن الثروة والقوة ، فإذا ألغيت المقاطعة وكسر الحاجز النفسى ، فتح الطريق أمام إسرائيل ، لتكسب على كل صعيد .

الثالث : الأمل فى أن يتصارع الفلسطينيون فيما بينهم ما بين مؤيدين للاتفاق منتفعين من ورائه ، ومعارضين له ، رافضين له شكلاً ومضمونًا ، وأن يتحاوروا بينهم بلغة السلاح ، لا بالألسنة والأقلام . وبذلك يصفى بعضهم بعضًا ، وإسرائيل تتفرج مشرقة الأسارير ! .

الصحوة الإسلامية لن تموت :

ونود أن نقول لإسرائيل : إن الصحوة الإسلامية لن تموت بإذن الله ، وأن الأصولية ستزداد قوة وإصرارًا ، كلما هاجمتها القوى المعادية للسلام .

وعلينا أن نوعى قومنا بما يدبر لهم ، حتى يقفوا كما وقف الشعب المصرى من قبل ضد التطبيع ، وعلينا كذلك : أن نناشد أخوتنا الفلسطينيين أن يتقوا الله فى أنفسهم ، وأن يحذروا من أى قطرة دم تراق على أيدى فئة منهم ، وألا يكونوا سياط عذاب فى يد إسرائيل ـ تجلد بها ظهر الانتفاضة المؤمنة ـ ما دام المسجد الأقصى أسيرًا ، والملايين مشردين .

دعوة لعلماء المسلمين :

ثم إنى أدعو الأحرار من علماء المسلمين ، ودعاة الإسلام ، ومفكريه : أن يسارعوا بالاجتماع ويتنادوا لإنقاذ الأقصى ، وليقولوا كلمتهم فيما يجرى من أحداث ، وقد قالوها من قبل منفردين ، فليقولوها اليوم مجتمعين .

* * *